فلسفة الفن

مجيد كوركيس

مدرس مساعد في قسم الاثار في كلية الآداب / جامعة بغداد

ان العمل الفني ما هو الا نوع من التحدي ، ونحن في تفسيرنا له نستند الى أهدافنا ، ومحاولاتنا الخاصة ، وبنت فيه معاني نستمد اصولها من طرائقنا في الحياة والفكر . فان أي ضرب في الفنون يخلف لدينا اثرا حقيقياً يصبح فناً حديثاً بمقدار ما أثّر فينا . ان المعنى الذي يحمله العمل الفني لجيل متأخر ليس الا ثمرة ذلك التراث الضخم في التفسيرات المتقدمة .

(فالأثر الفني ان هو الا واسط إتصال ، وان هذا التوصل يتطلب صورة خارجية تتميز في ان واد بالفاعلية والجاذبية والكمال ، وام هذه الصورة تصبح عديمة المعنى اذا فصلناها عن الرسالة التي تؤديها) [١].

ولا ننسى بما للدين والفلسفة والعلم والفن دوره في معركة الكفاح من أجل الحفاظ على المجتمع . واذا قصرنا الأمر على الفن وجدناه في مرحلته الأولى ، اداة لاعمال السحر ، ووسيلة لضمان عيش جماعة الصيادين البدائيين ، ثم الى أداة يصنعها المذهب الحيوي للتأثير على الأرواح الخيرة أو الشريرة مما يعيق مصلحة المجتمع ، وقد يتجه الفن تدريجيا الى اتخاذه قالبا دعائيا إعلاميا صريحا أو مستقرا في خدمة السلطة الملكية أو الطبقات الاجتماعية ، والدينية ، كما هو الحال في الفن الواقعي الذي كان يخدم ويبرز دور ومكانة الملك أو الأمير الحاكم

(١) هاوز ، ارنول ، فلسفة تاريخ الفن ، ترجمة رمزي عبده جرجيس – مطبعة جامعة القاهرة . ١٩٦٨ . ص ٨٠٧ .

في تاريخ بلاد الرافدين منذ العصر السومري وحتى العصر الآشوري وصولاً الى ابراز الطبقة البورجوازية في عصر النهضة .

وفي حالة انزواء الفن عن العالم ، حينما يشعر الفنان بالإغتراب عن مجتمعه ، يعتقد انه يقوم من اجل نفسه ، ومن أجل الجمال ، ولكن الحقيقة في الفن ، انه في هذه اللحظة يؤدي وظيفة اجتماعية على جانب كبير من الأهمية ، إذ انه يوفر للناس سبل التعبير عن قوتهم وتعزيز مصالحهم ، وتمثيل معاييرها الجمالية والخلقية ، واعترافها الضمني ، وان هذا الفنان يصبح دون اي قصد منه سوقاً يتحدث بلسانه عملائه وحماته .

ان الأثر الفني مركز التقاء مسارات اجتماعية ونفسية ثم طرازية ، والشخص يخلق بنفسه دوما امكانيات لا يرسمها له مجتمعه بحال ، وان كانت تخضع لقيود الأحوال الاجتماعية التي يعيش في ظلها الشخص المبدع ، يبتكر صورا جديدة للتعبير لا يجدها مجهزة له سلفا .

(هنالك رأي يقول ان مقارنة الفنون على اساس خلفيتها الاجتماعية والثقافية المشتركة أفضل من تناولها خلال نظريات الفنان ونواياه . من المؤكد ان بالإمكان ان نصف التربة الخصبة المشتركة بين العوامل الزمنية أو المحلية أو الاجتماعية للفنون والآداب حتى تصل الى نقطة التأثير المشتركة التي عملت فيها) [١] .

إن هذا النص يفيدنا في تحليل وفهم الجوانب الاساسية والعوامل المساعدة لبداية النهضة الفنية في العراق بعد الحرب العالمية الثانية إو قبلها بقليل كبدايات لا بد من استيعابها ، وفهم الظروف المادية المحيطة بها . فالواقع الاجتماعي ، والافكار الوطنية ، وانبهار الفنان بالفن الغربي ، كلها عوامل أساسية ساهمت في بلورة الاساليب المدرسية وغير المدرسية ، واذا قلنا بان نعني بالفن لا ينفصل عن التأثيرات المادية ، إجتماعية أو سياسية أو فنية ، فنحن لا نقصد ان نلغي الرؤية الفلسفية الخاصة بالفنان ونواياه ، حتى لو لم يبلور الفنان بالكتابة ، مثل تلك الرؤية

(١) كامل . عادل . المصادر الاساسية للفنان التشكيلي المعاصر في العراق . دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٩٧٩ . ص ٣٥ .

الفلسفية وان افلاطون في جمهوريته يطالب (ان يضع الفن نفسه في خدمة السياسة والاخلاق والدين) [١] . فلكل دين نظرته الخاصة بالفن ، ففي العصر السومري والعصور اللاحقة من تاريخ بلاد الرافدين القديم كانت اغلبية الاشكال الفنية لها مدلولاتها الرمزية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالدين . بينما وقفت اليهودية ضد الفن وقضيت عليه . في حين استعانت المسيحية بالفن ، لتقريب العقيدة المسيحية للأذهان .

أما الديانة الاسلامية بالرغم من الإنفصال بين الفن والدين [٢] الا ان الدين الاسلامي فقد تعلق بالتوحيد والتجريد . وكان هذا التعلق ، من الذاتية المتميزة للفن الاسلامي على مدى العصور وإختلاف امتداد المكان .

وان جميع المفاهيم الجمالية في الاسلامي تشترك في خاصية متميزة لها وهي تحديد روح جوهر الاسلام بوجه عام . ولايؤمن بفكرة الخلق . ولم يشارك الفنان الغربي طموحه الى مضاهاة الله في محاولة خلق الحياة . ولم يصرخ (الانسان مقياس كل شيء) كما لدى الاغريق .

فقد شاع إن الاسلام قد حرّم النحت والتصوير ، وما ازدهار الخط العربي والزخرفة ، والنقش على السجاد ، يرجع الى كراهية الاسلام للتصوير ، ولهذا التجأ الفنان المسلم الى مبدأ التجريد في الفن وابتعد عن الشخصية .

استمد مفكرو الاسلام ، ورجال الدين في الائمة والفقهاء اسانيد دعواهم ، وتشددهم أزاء الفنون التشكيلية في تصوير ونحت الى مصدرين أساسيين هما : آيات في القران الكريم والاحاديث النبوية الشريفة : (يا ايها الذين امنوا ، انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشطيان واجتنبوه لعلكم تفلحون) .

---

(١) بيلخانوف . جورج . الفن والتطور المادي للتاريخ ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة – بيروت . ١٩٧١ . ص ٩ .

(٢) ابراهيم ، جميل عطية . مفهوم الفن والجمال عند مفكري وفلاسفة الإسلام . آفاق عربية – بغداد ١٩٧٦ – العدد (٤) ، ص ٣٢ .

أما حديث الرسول ﷺ كراهيته للتصوير والمصورين الذين يضاهون بتصويرهم خلق الله (ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) [١] كان يعتقد رجال الدين الاسلامي ان المصدر بعمله يضاهي خلقه الله وينافس المولى في عمله .

نعتقد انه في بداية الدعوة الاسلامية ، كان البعض من الذين اعتنقوا الاسلام هو إيمان ظاهري ، وخوفا من الارتداد عن الاسلام والرجوع الى الوثنية في جهة ، ولكي لا ينشغل المسلم ببعض المسائل الثانوية في الحياة كالفن مثلا ، على حساب القضية الجوهرية ، وهي الجهاد في سبيل الله من جهة ثانية ، لذلك تم اتخاذ هذا الموقف الحازم .

أما الفن في رأي المازني ، وهو أحد الفلاسفة المسلمين اذ يقول : (ان الفن هو تعبير رمزي عن الحياة بما فيها من فردية وحرية وإبداع) [٢] . إذن ان النشاط الفني لن يكون مجرد حرفة يقتصر حاسبها على تطبيق بعض القواعد والاصول ، أو مجرد صناعة يلتزم القائم بها مجموعة من المبادئ والقوانين لان الفن الهام استعداد بالاضافة الى كونه جهد وصناعة . ومادام النشاط الفني نشاطا رمزيا يقوم على اصطناع بعض الأدوات والآلات ، فليس في استطاعة السلفية أو الطبيعية أو الفطرة ، ان ننهض بالعبء الأكثر في هذا النشاط ، كم ممن يفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والاراء السديدة ، والاحساسات العميقة ، يستطيعون ان يبرزوا هذه ، ويحدثوا فيها صورا ويحلوها للتأثر كما هي في نفوسهم ويجمع المازني بين الفن والصناعة ، فيقرر ان ابعض الاعمال الصناعية ، قد ترقى الى مستوى الاعمال الفنية ، في حين ان بعض نتاجات الفنانين ، قد لا تخرج في

(١) الصراف – عباس افاق النقد التشكيلي – دار الرشيد للنشر – بغداد – ١٩٧٩ ، ص ٧١.

(٢) ابراهيم ، زكريا – الفنان والانسان ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٥١ – ١٦٣ .

كونها مجرد أعمال صناعية ليست في الفن في شيء ، ويشاطر هربرت ريد ، المازني في الفن والصناعة فيقول (الفن شكل ومعرفة) [١] .

ويرى الفنان الفرنسي اوجست رودان (ان الفن هو ضرب في المعرفة أو التأمل ، أو النشاط الذهني ، دون ان يغفل بطبيعة الحال عنصر الذوق أو الحساسية الجمالية) .

ويقول أيضاً في فلسفته للفن (ان الفن هو التأمل ، انه متعة العقل الذي ينفذ الى اغوار الطبيعة ، يستكشف ما تنطوي عليه في عقل يبعث فيها الحياة . انه فرصة الذكاء البشري حين ينفذ بأبصاره الى اعماق الكون ، لكي يعيد خلقه مرسلاً عليه أضواء فاحصة من الوعي والشعور) .

ويقول أيضا (ان الفن عاطفة ، ولكن بدون علم الاحجام والنسب والالوان ، وبدون المهارة اليدوية ، لا بد ان تظل العاطفة الوية الجياشة ، عاجزة حائرة مشلولة) [٢] .

وقد عبّر عنه كذلك ميرلو بونتي في فلسفته للفن فيقول (الفن لغة واسلوب) ان كل ما في الوجود جميل في عيني الفنان ، لان بصره النفاذ يستشف في كل موجود ، وفي كل شيء ما فيه من شخصية ، اعني تلك الحقيقة الباطنة التي تبتدئ من وراء الصورة ، وهذه الحقيقة انما هي الجمال بعينيه ، لذلك جعل رودان الطبيعة مدرسة الفنان التي يتعلم منها الشيء العظيم ، وربما في الطبيعة من جمال باطني يكمن في حقيقتها .

فالجميل في الفن ، انما هو ما يحمل طابعاً وشخصيته ، فالطابع والشخصية تمثل العنصر الضروري الذي يكون الحقيقة ، والقبيح في الفن انما هو كل ما جاء زائفاً غير طبيعي ، اي كل ما اقتصر على مراعاة المظهر الخارجي دون الاهتمام بالتعبير والحقيقة الباطنية المتمثلة بالمضمون .

---

(١) كامل ، عادل – ١٩٧٩ ، ص ٩ .

(٢) ابراهيم ، زكريا ، ص ١٦٤ – ١٧٨ .

ان هذه الحقيقة الكامنة في الفن هي التي تؤدي الى ديمومة الفن في الحياة ، ومواكبة التطور ، وبديهية هذه الحقيقة في كشف الحياة بما فيها من جمال وقبح ، وخير وشر ن واسبقيتها في اظهار هذه الامور مع ما تكمنه تحت طياتها من اسرار ، فتأتي الأحاسيس المرهفة لتكشف لنا ذلك . وما الخطأ الفضيع الذي وقع فيه هيجل في فلسفته للفن ، اذ انه لم يدرك الى هذه الحساسية ودورها الفعال في مواكبة التطور . وحينما فاتته هذه الحقيقة نادى وبشر بموت الفن ، عندما تسود الفلسفة كطريق اخير للروح . وقد قام احد تلاميذ هيجل وهو كروتشه بنقد استاذه هيجل حين قال بموت الفن (ان كل مذهب هيجل الجمالي ، ليس الا رثاء مؤثر للفن) [١] .

وان هيجل كان في خوالج نفسه يؤمن بصيرورة الفن . الا انه بشر بموته كي لا يناقض اراءه مع فلسفته . وقد ميز هيجل ثلاث حقب كبرى في الفن ويسميها بالحقب :

١- الرمزية [٢] .

٢- الكلاسيكية .

٣- الرومانسية .

ان موطن الرمزية هو الشرق . والكلاسيكية موطنها هو اليونان أما الرومانسية فانها تشمل العالم المسيحي او الحديث . وعلى مر هذه الحقب الثلاث تبحث الفكرة عن نفسها وتلقاها وتتجاوزها .

في الرمزية الشرقية تهيمن الانشاءات الرصينة للفن المعماري وفي الفن الاغريقي الكلاسيكي ينتصر النحت ، واخيرا ليس جمال العصور الحديثة ، الجمال المحسوس الذي رفعه النحاتون الاغريق الى درجة الكمال . وانما الجمال الروحي الذي تعبر عنه الفنون الرومانسية ، الرسم والموسيقى وعلى الاخص الشعر .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) بيلخانوف -- جورج -- ١٩٧٧ . ص٩-١٥ . الصراف – عباس . ١٩٧٩ ، ص ١٠٥ .

بالاضافة الى هذه الحقب الثلاث ، ظهرت الطبيعية [١] عندما اهتم الفنان بالطبيعة ، ونتيجة للبحث العلمي ، ظهرت الانطباعية المستنبطة في تفاعل الضياء مع الألوان . ونظرا لعنف الحياة وتفاوتها ظهرت التعبيرية ، أما التكعيبية فانها برزت نتيجة الايمان باليقين الذهني ، والتجريدية برزت كتحدي الفنان وصراعه مع الديمومة والحياة الشائكة التي تعيشها النفس الغربية .

ويأتي الفنان الشرقي ليأخذ عن زميله الغربي كل شيء ، خطوطه والوانه واشكاله ، وحتى مواضيعه ، دون ادراك منه بانه بعيد عنه في الذوق والبيئة والسلالة . فالذوق الغربي غير الذوق الشرقي ، لاختلاف المزاج والثقافة والحضارة . ويرى عفيف بهنسي (ان الانسان الغربي يعتمد على العقل والسببية والواقع . بينما الانسان الشرقي يعتمد على الحدس والسحر والخيال) .

يقول الفيلسوف هربرت ريد (ان الجزريين [الساميين] يتميزون عن الآريين في انهم لا يعبرون مطلقا بالاساليب التجسيدية [التشخيصية] فالفن الذي يخلقونه فن متميز . انه لا يحترم الشكل احترام الفن الآري له . انه يتجنب كل ما هو محدود وثابت وهو لا يرى في التصوير وسيلة لتفسير العالم الخارجي . وانما وسيلة للتعبير عن النفس الداخلية . وهذا هو السبب في استخدامه للنماذج الاساسية للفن الفردي . الغنائية والرمزية) [٢] .

ان طابع الروح الغربية قد تجسد في فنونها المختلفة التي تتجلى في الكاتدرائيات الفخمة والسمفونيات العميقة . واللوحات الهائلة بينما تجسدت الروح الشرقية في العصور الفارهة ، ونغمات العود الرقيقة ، والالوان الشفافية البراقة . فالغربي يخاطب العقل بينما الشرقي يخاطب العاطفة والروح .

ان الفنان الشرقي المعاصر ينقصه البحث والتقصي والدراسة في الوقت الذي تستهويه الاقتباس والمحاكاة والتقليد . فالاتجاهات الفنية الغربية اصيلة وعميقة . نتيجة بحوث الفنانين ودراستهم المتواصلة ، بينما الاتجاهات

(١) الصراف ، عباس .آفاق النقد التشكيلي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٧٩ ، ص٢٧٩- ٢٨٠.
(٢) المصدر السابق .

الفنية عند فناني الشرق ، طارئة وسطحية ، وقد ظهرت في الشكل دون المضمون . لو لم يكن الفنان الشرقي مقلدا للفنون الاوربية لالتفت الى المواضيع والاشكال التي يفتقر لها الفنان الاوربي والتي يمكن ان تكيف تصميماته . ولصاغ منها طابعا مميزا لشخصيته الفنية .

لقد عاش الفنان الشرقي الاغتراب ، بدل امتلاك الذات والانتماء الى النفس ، فظل غائبا عن الابداع الفني ، وغارقا في ضبابية الضياع الروحي .

يقول فيلسوف الجمال سانتيانا (لكل سن ولكل بلد ، ولكل جنس جمال خاص به ، جمال ذو حدود ، ويستعصي عليه الانتقال الى غير موطنه . وكلما قرب الموضوع من هذا الجمال ازداد مخارجه لضروب الجمال الأُخرى)[١] .

ويرى فيلسوف الفن جويو (ان نمو هذا الفن او ذاك من الفنون منوط في الغالب بعادات نفسية معينة . وبحالة اجتماعية معينة) .

فما أعظم ان يستلهم الفنان الشرقي من كنوزه الجانب الروحي ويتخذ منها منطلقا لمذاهب فنية متعددة تساير روح العصر ومتطلبات المجتمع الجديد ، إذ مازالت المنابع الجمالية في الشرق تتدفق بالغنى الفني ، وما زال التراث لم يبح بجميع اسراره . فلو تفاعل مع القضايا المصيرية التي اتخذت الشرق مسرحا لها ، واستوصى معالجة تلك القضايا في اسلافه السومريين والفراعنة والآشوريين الذين جسدوا قضاياهم الملحة في أعمالهم الفنية الخالدة ، والتي كانت تعبر عن فلسفتهم ، لارتباط حياتهم بها في شتى مجالاتها . ولو تعمق في دراسة تلك الفنون وابعادها الاصلية . واكتشف المضامين التي كانت وراءها . ولو سير غور النفس الشرقية ليتعرف على اجوائها ورغباتها وذوقها ومزاجها ، لتقدم بكشوفات جديدة وجاد علينا بالف ملحمة شرقية تصارع ملحمة (جورنيكا) [٢] نظرا لمصيرية

---

(١) المصدر السابق .

(٢) لوحة تجريدية سجل فيها الفنان بيكاسو ادانته لكل ما ينال من كرامة الانسان ، وحقه المشروع في الحياة . جورنيكا قرية اسبانية التهمتها نيران نيرون القرن العشرين هتلر . للمزيد من التفاصيل ينظر مجلة الرواق . العدد (٨) سنة ١٩٧٩ . ص٢ – ٥ .

الأحداث . وتحديات العصر . والمآسي المحلية الشاخصة وهكذا اضحى الفنان الشرقي غير فاهما لنفسه ، لانه لم يتوصل الى الروح الجمالية الكامنة في حقيقة واقعة ، وظل متخوفا منها بعيدا عن سرها ، مما جعله ضائعا في فنه الذي فقد الجمال الشرقي في مضامينه . وخبرته الجمالية نقلها حرفيا في معاناة وما يطرحه الفنان الغربي من هموم وفوضى التي يتخبط فيها مع تناقضات مجتمعه وما يعكسه على نفسيته القلقة . فالفنان الشرقي يرسم القلق الأوربي ، دون مبالاته وادراكه ماذا يعنيه القلق الشرقي . والقلق الشرقي نعني به تلك الحلقة المفقودة بين طبيعة الواقع في الوقت الحاضر ، وبين الحضارات الباهرة . وعدم تمكن الفنان من ايجاد هذه الحلقة الضائعة بين حاضره وماضيه وكشفها لمجتمعه ، عن طريق الحساسية الجمالية النابعة من فنه . وهكذا فان الفن الشرقي يكون ضحية الفنان الذي لا يعرف كيف يتوصل الى جمال ولقعه . وابرازه كطريق خاص به . واثره على النشاط البشري ، الذي بدوره قد تبرز حقيقة كانت مجهولة ، ويستفاد منها النشاط البشري كدرس له في العصر الراهن .

النشاط البشري فن يرتكز أولا وبالذات على الخبرة الجمالية . والمقصود بالخبرة الجمالية ، احساس الانسان بالطبيعة احساسا عميقا خصبا . والفارق بين الادراك الحسي العادي ، والادراك الجمالي ان الاول يقتصر على معرفة الموضوعات بقصد استخدامها ، والانتفاع بها . والثاني لا يرى في الموضوعات سوى ظواهر جمالية يتذوقها ويتوقف عندها لذاتها ، ويستمتع بها استمتاعا حرا . وكما كان الفن وثيق الصلة بالخبرة الجمالية ، فان لغة الفن في اصلها هي لغة المحسوس حين يتحرر من اسر المنفعة . وقيد الاستعمال العادي . والفن يجعل من المحسوس لغة اصلية تقوم بمهمة التعبير . ومعنى هذا انه ليس في الفن موضع للمفاهيم والتصورات العقلية ، بل تعبير بلغة الرموز والأشكال الحسية . وكما يقول كاسيرر : (الفن شكل ورمز) [١] .

(١) كامل . عادل . ١٩٧٩ . ص ١٦ – ٢٥ .

وقد تكون الأنشطة البشرية في جملتها مجموعة من اللغات الرمزية . فان العلم والفلسفة والفن تستخدم رموزها الخاصة في التعبير عن الواقع ، والعمل على استجلاء الحقيقة . ولكن الفن دون سواه من اللغات الرمزية الاخرى اداة تشكيلية تقوم بتنسيق الواقع وتنظيمه وتحويله الى صور ذات أبعاد (الطول – العرض – الارتفاع) . إذن ان الفن إبداع لمجموعة من الصور والأشكال الرمزية التي تعبر عن قدرة الفنان على رؤية الواقع . والكشف الحقيقي الأصيل الذي يجعلنا لأول مرة نقف على عالم الواقع باعتباره دنيا الصور والأشكال .

فالفن في نظر الفنان ، ما هو الا طريقة لتعليمنا كيف ندرك العالم المرئي ، ولعل هذا ما عناه دافنشي حينما قال : (ان الرسام والنحات هما المعلمان العظيمان اللذان يكشفان لنا عن ملكوت العالم المرئي) [١] .

ان ادراك الأشكال الخالصة للأشياء ليس منحة طبيعية ، بل درس نتلقاه على ايادي كبار الفنانين ، والمثال على ذلك ، اننا قد نلتقي بموضوع ما في تجربتنا الحسية العادية آلاف المرات ، دون ان ندرك شكله او صورته . ومن هنا فاننا نقع في حيرة كبرى لو طلب الينا ان نحدد خصائص هذا الموضوع ، والفن يأتي فيسد هذه الثغرة لانه الذي يسمح لنا بان نحيا في عالم الاشكال الخالصة والصور النقية . وان خيال الفنان لا يخترع اشكال الاشياء بطريقة تعسفية صرفة ، بل هو يكشف لنا عنها في صورها الحقيقية حتى نراها ونتعرف عليها .

صحيح ان الفنان يتخير جانباً من جوانب الواقع ، ولكن عملية التخير هي عملية (تحقيق موضوعي) . وحين نعمد الى اتخاذ وجهة نظر الفنان . فاننا نتخذ في منظوره لنا وبالتالي نجد انفسنا مضطرين الى العالم من خلال عيانه الخاص ، وعندئذ قد يخيل الينا اننا لن نرى العالم قط من قبل في هذا الضوء الخلص . وان هذا الضوء ليس مجرد ومضة سريعة خاطفة بل قد اصبح بفضل العمل الفني نوراً ثابتاً قابلاً للاستمرار . والفن بهذا المعنى صورة من صور الوحدة او الكلية . فان

(١) ابراهيم . زكريا . ص ١٨٠ – ١٨٥ .

العمل الفني الذي نتعاطف معه نستجيب له . لابد ان يجئ معين عن خبرة كلية موحدة من خبرات الوجود البشري بأسره ، ابتداءً من اولى انفعالاته حتى ارقاها .

وقد يحرص بعض علماء الجمال على توثيق الصلة بين الفن والمجتمع بحجة ان الظاهرة الجمالية هي مجرو ظاهرة اجتماعية وان الفن هو دائماً في خدمة الجمهور . ولكن من المؤكد ايضاً ان الظاهرة الجمالية في اصلها ظاهرة انسانية . وان الفن في صميمه لغة انسانية يحقق للبشر عن طريقها من التوصل فيما بينهم . ونحن حين نحرص على ابراز صلة الفن بالانسان ، فانما نعني من ورائه التأكيد بهذه الصلة التشديد على الدور الذي يقوم به الفن في الحضارة البشرية بوصفه اداة للاتصال والمشاركة ، والتبادل المستمر ، وان الاشعاع الروحي الذي يتحقق عن طريق الاعمال الفنية يمثل مدرسة اخلاقية كبرى نتعلم فيها الدروس وشتى احاسيس المشاركة الوجدانية ، وهذا السر في الفن يعتبر اعمق مظاهر النشاط البشري تعبيراً عن الاتصال ، واشدها اثارة للانفعال ، واكثرها تأكيداً لاستمرار التاريخ ، وتعاقب الاجيال ، وان رسالة الفن تعتبر الرسالة الانسانية العامة التي يتم عن طريقها تحقق التواصل بين بني البشر .

ألسنا نتعاطف مع ملحمة كَلكَامش ، وملاحم اليونان ومعلقات العرب في للجاهلية ، وتماثيل كبار الفنانين في عصر النهضة ، ولوحات الرسامين الفرنسيين الاكاديميين في القرن التاسع ، ونصب الحرية لجواد سليم في القرن العشرين ، وغير ذلك من الاعمال الفنية في الشرق والغرب على السواء ، لاننا نجد فيها جميعاً تعبيراً عن الانسان آلامه وآماله ، حبه وكراهيته ، خوفه وجرأته ، فكره وخياله ، حقيقته ووهمه ، سعادته وتعاسته .... الخ ، اليس في هذا كله دليل قاطع على اننا قد اصبحنا ندرك اليوم الصيغة الانسانية المميزة لكل خبرة جمالية .

اذا كان الفن نشاطاً بشرياً عاماً ، نلتقي به لدى المتحضرين والبدائيين على السواء ، وعند البالغين والاطفال على قدم المساواة ، فهل يكون معنى ذلك كما زعم البعض ، ان النشاط الفني هو مجرد صورة من صور اللعب واللهو .؟!

ان تطور الانسانية قد بطل آراء مناهضي الفن وخصومه حيث ان اوقات الفراغ لدى الانسان المتحضر خصوصاً في المجتمعات الصناعية الحديثة ، فتزيد من حاجته الى ابتكار ضروري جديد من التسلية وتؤكد لديه الرغبة في إشباع المزيد من الحاجات الكمالية ، وليس من شكك في ان الانسان المعاصر قد أصبح اشد ولعاً في اسلافه جميعاً بالمعارض والمتاحف وصالات العرض والموسيقى ، ودور المسرح والسينما وقاعات الرقص . ومن هنا فأن ماتنبأ به فيلسوف مثل هيجل حين قال : (بموت الفن) . قد لبث انه اكذوبة كبرى . جاء تطور الحضارة البشرية على بطلانها . والا فهل استغنى البشر عن لغة الصور الحسية من أجل الاكتفاء برموز العلم الرياضية او تصورات الفلسفة العقلية ، او هل استطاع انسان القرن العشرين ان يكف نهائياً عن اللجوء الى الصور والخيال والوجدان ، من اجل الانتصار على استخدام الفكر والتجربة والاستقرار .

ولو تعمقنا دلالة الفن بالنظر للذين يعيشون للفن . ان الفن عندهم ايمان بالحياة وبقيمة وعظمة الحياة ، فهو احساس نابض بما في الوجود من قيم جمالية يعمل الفنان على ابرازها . حتى يزيد من احساسنا بعمة الوجود ، وهنا تظهر الصلة بين الفن والانسان . فان الفنان الذي يقضي حياته باحثاً عن القيم هو أولاً وقبل كل شيء انسان مكتشف يحاول ان ينفذ الى نواة القيمة من خلال القشرة الواقع ، يعلم ان معنى الحياة ليس رهناً بالبحث العادي عن مطالب الجسد ومشاغل الحياة المادية ، بل رهين بعملية البحث عن القيم الانسانية ، والسعي وراء المعاني الروحية .

صحيح انه ليس هنالك من بدون مادة ، ولكن مهمة الفن على وجه التحديد انما هي التنكر للمادة . التي لا قيام له بدونها . مادام لابد له بالضرورة من ان يقوم برد فعل ضدها . وهذا هو قول بعضهم ان منظر الفنان هو دائماً منظر مادة ، وانسان يصطرع معها . اجل ولكن الفن ايضاً معلم البشرية الذي طالما لفن الانسان دروساً في الجودة والاتقان انه يعلمنا كيف ننظر ، وكيف نرى ، وكيف نفهم ، وانه يعلمنا كيف نحب الحياة ، من خلال اللحظات الوجدانية الخالصة

المتمثلة في انتصار الجمال (الخير) على القبح (الشر) وخلاصة القـــول : ان الفن هو نبض الحياة .

المصادر :

١- ابراهيم – زكريا – الفنان والانسان – دار غريب للطباعـــة – القـــاهرة – بدون تاريخ .

٢- ابراهيم – جميل عطية . مفهوم الفن والجمال عند مفكري وفلاسفة الاســـلام آفاق عربية – السنة الثانية – العدد (٤) – كانون الأول ١٩٧٦ .

٣- بيلخانوف – جورج – الفن والتطور المادي للتـــــاريخ . ترجمـــة جـــورج طرابيشي – الطليعة بيروت – ١٩٧٧ .

٤- هاوز – ارنولد . فلسفة تاريخ الفن – ترجمة – رمـــزي عبـــدة جرجيـــس مطبعة جامعة القاهرة – ١٩٦٨ .

٥- كامل – عادل – المصادر الاساسية للفنان التشكيلي المعاصر في العـــراق – دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٩٧٩ .

٦- فرويد – سيغموند – التحليل النفسي والفـــن – ترجمـــة ســـمير كـــرم دار الطليعة – بيروت – ١٩٧٥ .

٧- الصراف – عباس . آفاق النقد التشكيلي . دار الرشيد للنشـــــر – بغـــداد- ١٩٧٩ .